متشابكة من أجساد الرجال والنساء ـ والأطفال محشورون بينهم ـ تختلج، ويندّ عنها نشيجٌ مكتوم وتمتماتٌ غير مفهومة؛ رجلاً يحاول أن يجعل ابنته الصبية بين ذراعيه، فيعجز عن حملها ويسقطان على الأرض يضحكان؛ امرأةً ورجلاً متعانقيْن يتدحرجان على الأرض، غير مكترثيْن للأرجل تدوسهما؛ امرأةً تنهار بين ذراعَيْ زوجها العائد، والرجل يرنو اليها حائراً.

نشيج، زغاريد، دموع، ضحكات مرحة. ثم يتحرك المستقبِلون والعائدون، في مجموعات صغيرة، يمرون عبر البوّابة، ويفارقون المكان، هم وضجيجهم، ويحلّ السكون. الساحةُ مقفرة الآن تقريباً، وصامتة. لا يتبقى في الفناء الواسع غيرُ سبعة رجال، متروكين وحدهم في الشمس. واحد منهم يحرك يده في الهواء يصطاد ذباباً وحشرات وهميةً يضعها في فمه، وآخر يضحك مع نفسه. الخمسة الباقون يقفون في صمت، متقاربين، على وجوههم علائم الشعور بالحيرة والضياع، عيونهم شاخصة نحو البوابة.

يخشى الاقتراب من صائد الحشرات، ومن الرجلِ الذي يضحك مع نفسه. يدنو من الآخرين. الوجوه ذاتها تقريباً؛ شعور بيض، وتجاعيد، وعظام. لكنّ جدته أكدتْ له أنّ اسم أبيه مذكور بين أسماء العائدين. «لو كنتُ أستطيع لجئتُ أنا معك». «وكيف يعرفني!؟» تمد يدها له بصورة صغيرة، متهرئةٍ قليلاً، تحتفظ بها تحت وسادتها: «سوف يتعرف عليك حين يراك تحملها». وبرغم يقينه من أنّ أباه لا يمكن أن يكون واحداً من هؤلاء الرجال ذوي الملامح الغريبة، والهياكل المحطمة، فإنّه يحمل الصورة بين يديه، ويخطو أمامهم. لا أحد منهم يلتفت إليه، عيونهم تظل شاخصة من فوق رأسه، نحو البوابة، ووجوه المارة في الطريق. الرجال الخمسة يتشاورون فيما بينهم. بعد ذلك يتحركون باتجاه المدخل.

صائد الحشرات، والرجل الذي لا يتوقف عن الضحك، لا يغادران مكانهما. يمشي وراء الخمسة ليعود إلى جدته، يعذِّبه الشعورُ بالخيبة، والصورةُ ما تزال في يده. أحد الرجال ينتبه إلى خطواته تتبعهم فيلتفت إليه، يستدير، يحدِّق في الصورة، ويعود مسرعاً، يمسك به من ذراعيه بقوة:

«لقد كبرتَ يا ولد!»

ثمّ يرنو إلى الوجه المتغضّن الماثل أمامه في ارتياب وهو يسأل: «ولكن لماذا لم تأت هي معك!؟»

ـ «ماتت».

يغمض الكهلُ عينيه، تسقط ذراعاه، يداه الشاردتان تبحثان عن شيء في جيوبه. يُخْرجهما بعد قليل خاليتين. يرنو إلى الرجل المصاب بنوبة ضحك لا تنتهي. الرجل الآن يشهق ويتلوّى. يعود بوجهه إليه. يلوح عليه الشرود.

ـ «لنذهبْ».

يظل هو متردداً، يمدّ الرجلُ يدّه الناحلة ويُمسك بكفه:

ـ «سوف تخبرني بكل شيء ونحن في الطريق».

ينقل نظراته بين الوجه الوسيم الفتي في الصورة، وملامح وجه الكهل المليء بالغضون، يكلِّمه، ثم يحشر الصورة ـ التي تهرأتْ ـ في جيبه. ما يزال حائراً، لا يدري كيف انقلب الوجه هكذا. إلا أنه يغالب تردده، ويمضي معه، تاركَيْنِ الرجلَ المهووس بالضحك، وصائدَ الحشرات، يقفان وحدهما في الشمس، وسط الساحة. الكهول الأربعة الآخرون ـ ممن تبقى في المستودع من الرجال العائدين من الأسر ـ يقفون الآن عند المدخل، لا يغادرون أماكنهم، عيونُهم تتفحص وجوه المارة.

بغداد

وجوه في المرآة

خليفة قرطي

لم ينتبه السيد حسين خوجة عندما نهض من فراشه في ذلك الصباح إلى الأمر. فقد نزل من سريره وانتعل، ثم خرج من الغرفة مغمضَ العينين، واتّجه إلى المرحاض وهو يقاوم نعاسه. وبعد هنيهة وجد نفسه في الحمام يمدّ يده اليمنى إلى حنفية الماء البارد يفتحها، واليسرى إلى قطعة الصابون المعطّر. دَلَك يديه ثم غمر وجهه بالماء البارد عدة مرات، وتلمّس المنشفة عن يمينه ثم مرَّرها على وجهه ويديه، وفتح عينيه على المرآة أمامه... فإذا صورة عبّاس البوّاب تبدو أمامه، بوجهه العريض المنتوء وشاربه الكثّ وشعره الرمادي. حرّك رأسه بعنف وبسمل، ثم التفت يميناً، وعاد ينظر إلى المرآة شيئاً فشيئاً. كانت صورة عباس البوّاب تملأ المرآة. مدّ يده نحوها فلاحتْ في المرآة يدُ عبّاس الغليظة ذات الأظافر الصلبة التي تُخفي تحتها سواداً، وعهدُهُ هو بيده بيضاءَ نقيةً. ترك المنشفة تنزلق من يده اليسرى وحاول أن يغطّي وجهه براحتيه فأحسّ بخشونة ملمسهما وكثافة الشارب تحتهما، وعهدُهُ بنفسه حليقاً دائماً وبلا شارب. خمَّن أنْ لا بد أنّ ذلك من آثار النعاس عليه، وأنه سوف يزول ما دام الأمر غير معقول.

أمس، في الرابعة من بعد الظهر، كان عبّاس البواب قد طرق باب مديره السيد حسين خوجة ثم دخل دون أن يسمع الإذن بالدخول، ففوجئ بمديره يسوّي سرواله غيرَ بعيدٍ عن السكرتيرة الجديدة التي كانت ممدَّدةً فوق الأريكة يسارَ المكتب وقد رفعتْ إحدى ساقيها فوق المتكإ الخشبي مما يلي الكتبَ وتدلّتِ الساقُ الأخرى على طرف الأريكة حتى كادت أن تلامس الأرض.

أحس عباس بدوار شديد وتسمّر في مكانه أبكم مشلولاً، أما المدير فقد انفجر في وجهه وهو يواصل تسوية سرواله:

ـ ماذا تريد؟ لِمَ لا تستأذن قبل أن تفتح الباب؟

ظلّ عبّاس واقفاً في مكانه، عاجزاً عن الكلام والحركة. نهضت السكرتيرة الجديدة وراحت تعدّل من منظرها بتسوية القميص داخل التنورة القصيرة الضيقة. ثم خَطَتْ باتجاه الباب تطرق الأرضَ بكعب حذائها. لم يرها عباس حين مرت قربه ولم ينتبه إلى اصطفاق الباب من خلفها؛ فقد هاله الموقفُ وفكّرَ في مصيره.

لما فرغ المدير من ضبط ربطة العنق، نظر إلى بوّابه في حنق وصاح به ثانيةً:

ـ لقد كثرتْ أخطاؤك. وأنا تحمّلتُ الكثير منك. أخرجْ، لا أريد أن أراك هنا بعد هذه اللحظة...

حاول عبّاس البوّاب أن يقول شيئاً: أن يعتذر أو يتوسل. لكنّ السيد حسين خوجة رفع سمّاعته وطلب من سكرتيرته الجديدة إصدار أمر بإنهاء مهام المدعوّ عباس ابتداءً من تاريخه وساعته.

غادر عبّاس مكتب مديره يجرّ خطاه منهاراً منكسراً، ثم تدحرج عبر درجات السلالم الموزعة على الطوابق الثلاثة ووجد نفسه خارج باب الشركة واقفاً لا يدري ما يصنع.

وقّع المدير على قرار الفصل وأصدر أمراً بتعيين الحاج قاسم بوّاباً جديداً.

*

أول عقبة كانت تعترض حسين خوجة، حين تيقّن أنْ لا علاقة للنعاس بالأمر، هي كيف يفسِّر الظاهرةَ لزوجته وابنته، إنْ وجد لها تفسيراً مقنعاً أولاً. قد تقتنع الزوجة إذا ذكّرها ببعض تفاصيل ليلة البارحة مما لا يعلمه من الناس سواهما، وقد تتفهم الأمر على أنه حادثة عابرة ستزول، لأنّ الذي أمامها هو حسين خوجة زوجُها منذ أكثر من اثني عشر عاماً. بقيتْ مشكلةُ الطفلة: «هذا أمر سيُدرس لاحقاً. ستقوم أمُّها بالتمهيد له قبل أن تراني، حتى إذا رأتني لم تفاجأ. عامل الوقت مهم في مثل هذه الحالات».

ثم انتبه إلى عامل الوقت، فقرر أن يغادر البيت بسرعة دون أن يراه أحد. استغلّ فرصة انشغال زوجته بتحضير الفطور في المطبخ، ونوم ابنته في غرفتها، وارتدى ملابسه بحذر ثم تسلّل إلى خارج البيت... «هكذا ربما سأستعيد ملامحي مع مرور الوقت». سار حسين خوجة على طول الشارع المؤدّي إلى محطة الحافلات. تعمّد الخروج راجلاً لعلّ واحداً من الذين يعرفهم يتعرّف عليه وينادي باسمه. قطع الشارع وحيداً ينظر إلى المارة المسرعين ويلقي على بعضهم التحية فلا يردّها إلا القليل. ثم توقف أمام محل الحلويات الذي اعتاد قضاء حاجاته من عنده، وقرّر الدخول. كان صاحب المحل منشغلاً بزبون، ولما فرغ منه التفت إلى حسين خوجة:

ـ نعم عمّو؟ ماذا أعطيك؟

فوجئ بلقب «عمو» هذا وبطريقة الاستقبال غير المعهودة. لقد اعتاد أن يلقاه عند الباب، فيُجلسه في مكان مريح ويلبّي حاجته دون أن يطلبها ويودّعه عند الباب قائلاً: «مع السلامة سيد حسين، مع ألف سلامة».

نظر إليه حسين خوجة مبهوتاً ثم اعتذر، وانصرف ليكمل طريقه في تؤدة إلى محطة الحافلات. وفجأة، لمح وجهاً باسماً قادماً إليه من قبالة. عرفه حسين: إنّه سائقه السابق المتقاعد، فهشّ وجهه وانبسطتْ أساريره وهو يراه مقبلاً عليه مسلِّماً:

ـ أهلا يا عباس، كيف حالك؟ كيف حال الشغل؟ والرفقاء، كيف حالهم؟ سلِّمْ عليهم، لا تنسَ...

ثم مضى السائقُ المتقاعد واختفى وسط الزحام.

سيطر على حسين خوجة شعورٌ بلاجدوى البحث عن نفسه في عيون الآخرين؛ يكفي أنه يعرف نفسه، وهذا هو المهم، أما الآخرون، فلا أحد يهمه من أمره شيء. ثم لِمَ لا يكونون هم ليسوا إيّاهم؟ من أدراهم أنّ تلك هي ملامحهم ووجوههم؟ وبدا الخاطر مطمئِناً، فهو على الأقل سيتساوى وإيّاهم الآن. ولم يعد يهمه كثيراً أن يتعرف عليه أحد.

بلغ محطة الحافلات. لم يدرِ حين توقف فوق أحد أرصفة الانتظار أيَّ اتجاهٍ يسلك. الناس يتزاحمون أمام أبواب الحافلات ويركضون خلفها، قبل أن تتوقف في المكان المخصّص لها. يلمح كل ذلك، وللتوّ يخامره إحساس بأنه يحيا في هذا المكان لأول مرة، فهو لا يذكر أنه استقل حافلة منذ سنوات؛ لقد أراحه المنصبُ من ضنك العيش والعَدْو في كل الاتجاهات، لكنه، في تلك اللحظة، يجد نفسه مدفوعاً إلى أن يحيا هذه الحياة الصاخبة الصعبة. انجذب وسط التيار يحتمي من ضربات الأيدي والمناكب والأحذية. ووجد نفسه بعد لحظات داخل إحدى الحافلات. لم يسأل عن الاتجاه. دفع ثمن التذكرة ووقف في المكان الذي أريد له، وانطلقت الحافلة تشق مسلكها وهي تشخر وتئنّ، تسير قليلاً وتتوقف كثيراً.

انتبه حسين خوجة إلى أن الطريق الذي تسلكه الحافلة ليس غريباً عنه. فهو الطريق ذاته الذي اعتاد أن يقطعه كلَّ يوم من منزله إلى الشركة جيئة وذهاباً، وها هي ذي بناية الشركة تبدو شامخة بطوابقها الثلاثة، وها هو ذا بابها الحديدي الأخضر الذي دأب عباس على فتحه وغلقه له كلما دخل أو خرج بسيارته... عباس. لعنة الله عليك يا عباس!...

توقفت الحافلة بعد أن اجتازت البنايةَ قليلاً. نزل حسين

خوجة ومشى باتجاه مبنى الشركة. وعلى بعد أمتار من بابها الأخضر لمح رجلاً ببذلة أنيقة ونظّارة طبية ومحفظة سوداء في يده، يسير نحو باب الشركة. كان هذا الرجل يحمل ملامحه الأولى، ملامحَ حسين خوجة ذاتها، تلك التي ضاعت منه منذ أن فتح عينيه هذا الصباح. لم يصدِّق ما رأت عيناه. وقف وتلمّس وجهه مرةً أخرى. كان الشاربُ لا يزال كثّاً، والوجهُ منتوءاً. ثم ركض نحو الباب فوجده قد أُغلق وراء حسين خوجة الآخر الذي كان يتسلّق درجات السلالم باتجاه المدخل. رفع صوته بالنداء:

ـ هاي.. يا هذا.. يا سيد.. هاي.. أنت..

لكنّ الرجل اختفى خلف زجاج الباب الداخلي دون أن يلتفت. قَرَعَ الجرس، فخرج إليه، بعد هنيهة، رجلٌ طويل أنيق، لا شارب له، انحدر عبر درجات السلم حتى وصل إليه:

ـ نعم، ماذا تريد؟

ـ أريد أن.. أنا.. ألا تعرفني؟

ـ أعرفك.. لديَّ أمر بألا تطأ قدمُك هذه الشركة.

ثم صعد السلالم واختفى وراء الباب الزجاجي هنيهةً، وعاد إليه بورقةٍ دَفَعَها إليه بحنق:

ـ خذ. هذه نسخة من قرار إنهاء مهامك. أنظرْ، لقد وقّعها المدير نفسه، السيد حسين خوجة.

حاول أن يحتجّ:

ـ ولكن أنا هو... أنا...

وانصرف البوابُ الجديد، لكن دون أن يعود من وراء الباب الزجاجي هذه المرة.

*

وفي المساء، قرر حسين خوجة، بعد يأس، أن يعود إلى البيت ويواجه زوجته بالحقيقة. عليها أن تفهم الأمر كما هو، فليس الذنب ذنبه إنْ تغيرتْ ملامحه بين ليلة وصبيحة. تشجّع وطرق الباب، فانفتح على ملامح ابنته سارة التي عادتْ أدراجها وصفقت البابَ وهي تصرخ:

ـ ماما، ماما، رجل...

ثم جاءت أمها تستطلع. فتحت الباب وابتسمت قليلاً وقالت:

ـ لن يتأخر. سيستقبلك حالاً.

ومن الداخل انبعث صوتٌ متسائلاً:

ـ ماذا هناك يا سلمى؟

ردّت الزوجةُ مطْمئِنةً:

ـ لا أحد، إنه عبّاس البوّاب...

الجزائر

أذكر أنه كان يدلف إلى المقهى متجهماً، يلتفت يميناً ويساراً باضطراب وقلق، كأنه يبحث عن شيء مجهول ضائع. ثم يجلس إلى طاولة متآكلة، وكرشه متدلية بين رجليه القصيرتين، يحتسي كؤوس الشاي المنعنعة بصوت حوشي. ومن حين لآخر، يفتل شاربه القطّي، ويجذب رشفة أو رشفتين من غليونه الطويل المزركش، نافثاً دخانه من منخاريه الواسعين، مشكّلاً سحباً كثيفة تخنق الروّاد وتُعْشي أبصارهم، وصاحبنا لا يحس بشيء، كأنه في عالم آخر. ثم يحشو ثقبتيْ أنفه بالسعوط، وشدقيه بالتين أو التمر أو الجبن البلدي المالح، ويأكل كل ذلك مع ما تيسر من ذباب وما يحضر في تلك الساعة.

كانت شخصيةُ هذا الرجل الغريبة تثير فضولي وتأسرني. بل كثيراً ما كنتُ أُحصي أنفاسه، أتفرس حركاته المضطربة، ونظراته الزائغة. ولم أستطع أن ألملم من خيوطها المخبلة إلا النزر اليسير. هل لأنه تعود أن يكتم شؤونَه حتى على الجني الأسود؟... أم أنه يحرص على الانزواء والانطواء، لما عاناه في حياته من آلام وعذابات؟... الحقيقة أنني لا أدري كيف أفسر هذا الفضول الآسر، وجاذبيةَ هذه الشخصية.

لكن، بقدر ما كان صاحبُنا يتسمر في مكانه صامتاً كأنّ الطير تحوم فوق رأسه، كان أيضاً يكسر هذا الصمت المطبق بقهقهة عالية مدوية، تهتز لها الجدران والأبوابُ والنوافذ والواجهة الزجاجية، وتمجّها الأذواق، وتستنكرها الأنظار!..

ولا يمر يوم دون أن أُسِرّ في نفسي الظمئة: صبراً، لا تتعجلي الأمر، كلُّ فاكهة في فصلها تنضج وتحلو، فيسهل أكلُها ومضغُها وبلعُها، وإن كنّا ـ نحن في أرض العروبة ـ نتناولها قبل أوانها!... غير أنّ فضولي، أو تحرياتي المجانية، لم تسفر عن نتيجة هامة، باستثناء جملة يتيمة، خطفتها أذني من فمه: «النسوان ولا السياسة!»... همس بها صاحبنا بينه وبين نفسه، وهو يرنو من الواجهة إلى «بارميت»، تختال بخطى بطيئة، كناقة سمينة.

لحظتُهُ بعينيَّ اللتين سيأكلهما الدود، يتلمظ بشفتيه واللعاب يندلق على بذلته الرمادية، يغمز ويهمز ويلمز، ويُظهر من جيبه أوراقاً خضراء لونُها فاتح، ويومئ ـ والعياذ بالله ـ إلى الخلفيّة التي تتمايل بها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، وهي تبتسم ببلاهة ودلال، وتزمّ شفتيها المشقوقتين، وتهفهف بحاجبيها وعينيها بعذوبة مصطنعة، وتضع سبّابتها على خدّها الذي لم يتورد من الخجل، كأنها تقول له: «عار عليك ما تطلبه!».. ثم أردفتها بإشارة من رأسها أن يتبعها، ويقتفي